سيف الله

خالد بن الوليد

obeikandl.com

obeikandl.com

خالد بن الوليد

سيف الله

لا يمكن الحديث عن أبطال الإسلام دون الحديث عن هذا البطل الفذ ، الذى لم يعرف التاريخ له مثيلاً فى جسارته وشجاعته ، وقدرته على التخطيط وخوض المعارك ، وتحقيق أعظم الإنتصارات ، والاستفادة من خطط العدو. إنه بطل حروب الردة ، وحروب الفرس والروم ، ورافع راية التوحيد فى كل معركة خاضها بإيمان المؤمن وجسارة الفارس الذى يحرص على الموت لتوهب له الحياة.

ذلك البطل العظيم هو خالد بن الوليد الذى قال عنه رسول الله ﷺ:

«نعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين».

ما أعظم هذه الأيام التى غيرت مسار الإنسانية كلها ، يوم نادى النبى العظيم بدعوة الإسلام ، واعتنقها هؤلاء الذين كانوا

نور هداية للإنسانية فى كل العصور!

ولعل خالد بن الوليد كان يتذكر رحلة عمره عندما دخل الإسلام وتذكر تلك الأيام التى عاشها فى مكة بعيدًا عن نور الهداية ، معاديًا للإسلام ، صادا عن دين الله ، غارقًا فى أوهام قومه فى عبادة أصنام لا فائدة تُرجَى من ورائها ، فهى لا تنفع ولا تضر ، بل إنه حارب الدعوة بشراسة ، وكان أحد الذين تصدوا للمسلمين بعنف فى غزوة أحد ، وكان فارس مكة الذى استطاع أن ينتهز فرصة مخالفة رماة المسلمين لأمر النبى، فنزلوا من أماكنهم الحصينة ، عندما تصوروا أن العدو قد حاقت به الهزيمة، فتركوا مواقعهم ، وانتهزها خالد فرصة فانقض على المسلمين، ومال ميزان القوى لصالح المشركين ، ولولا صمود النبى والتفاف الصحابة واستماتتهم فى الدفاع عنه لحاقت الهزيمة بالمسلمين.

ولكن خالد بن الوليد قد فكر طويلاً وهو يشاهد انتصارات الإسلام وذيوعه بين القبائل ، وقرر أن يسافر إلى المدينة ليعلن إسلامه ، ويبقى بجانب النبى ويكون من سيوف الإسلام ، وهو يصور إسلامه بقوله:

«وددت لو أجد من أصاحب ، فلقيت عثمان بن طلحة،

فذكرت له الذى أريد ، فأسرع الإجابة ، وخرجنا جميعًا فأدلجنا سحرًا ، فلما كنا بالسهل إذا عمرو بن العاص فقال : مرحبًا بالقوم.

قلنا : وبك.

قال : أين مسيركم ؟

فأخبرناه ، وأخبرنا أيضًا أنه يريد النبى ليسلم، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة أول يوم صفر سنة ثمان ، فلما اطلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

فقال الرسول : لقد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير.

وبايعت رسول الله وقلت : استغفر لى ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله.

فقال : إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله..

قلت : يا رسول الله على ذلك..

فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضعَ فيه من صد عن سبيلك».

وتقدم عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ، فأسلما وبايعا رسول الله ، ومضت أيام خالد لتكون كلها جهاداً فى سبيل الله.

وبدأ أول صراع بين العرب وأوربا ، عندما حشد الروم أكثر من مائتى ألف مقاتل فى «مؤتة» أمام ثلاثة ألف مقاتل مسلم.

وكان سبب هذه الحرب، أو بداية الصراع بين المسلمين والروم، أن النبى ﷺ أرسل رسائل فى السنة السابعة من الهجرة إلى ملوك العالم ورؤسائه يدعوهم إلى الإسلام؛ عملاً بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

فالإسلام دعوة عالمية ، وليس دعوة إقليمية. وحمل رسل رسول الله هذه الرسائل وانطلق كل منهم إلى من كلفه النبى بتوصيل الرسالة إليه ، وكانت هذه الرسائل موجهة إلى كسرى، وإلى ملوك الحبشة ، وإلى المقوقس فى مصر، وإلى أمير اليمامة، وإلى صاحب بصرى، وإلى الحارث بن شمر الغسانى أمير غسان، وكان يحمل الرسالة إليه شجاع بن دهب الأسدى ، الذى قوبل مقابلة سيئة للغاية من الأمير الغسانى ، بل تمادى فى غضبه وهو يلقى رسالة الرسول فى وجهه ويهدد بمحاربة النبى. أما الحارث

ابن عمير الأزدى الذى حمل رسالة النبى إلى صاحب بصرى فقد قتل عندما أوقفه عند قرية «مؤتة» أحد أمراء الغساسنة وقتله.

ولم تكن هذه الحادثة لتمر ببساطة ، فقد أرسل النبى جيشا لمقاتلتهم تعداده ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى العام الثامن من الهجرة.

وعندما تقدم جيش المسلمين ، وكان خالد بن الوليد جنديا فيه، هاله ما رأى ، فلم يجدوا أمامهم جيش الغساسنة فقط ، ولكن وجدوا بجانبه جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية الذى جاء لمساعدة حلفائهم من الغساسنة ، وعند «معان» وقف المسلمون يفكرون - وهم يرون هذا العدد الضخم من جيوش العدو أمامهم - كيف يواجهون هذا الجيش الكثيف؟ وهل ينسحبون ويعودون إلى المدينة؟ أم يواجهون الموت فى سبيل شرف الاستشهاد ، ولكن بعد تفكير طويل قرر المسلمون الحرب، وقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير، وسقط زيد بن حارثة، وتولى القيادة جعفر بن عبدالمطلب، واستشهد ، ثم تولى القيادة عبدالله ابن رواحة، واستشهد، واختار المسلمون خالد بن الوليد. وهنا فكر خالد فى الأمر ، ودرس أرض المعركة وأبعادها ، ورأى بذكائه الحاد أن محاربة الروم وهم بهذه القلة لا طائل من ورائها،

وأخذ يفكر كيف ينسحب بجنده بأقل ما يمكن من الخسائر.

دبر حيلة بارعة ، بأن أرسل بعض جنده خلف خطوط جيشه ليُثيروا الغبار عن بُعد ، فأيقن العدو أن مددًا من الجند قد جاء للمسلمين، وتحت جنح الظلام انسحب من أرض المعركة عائدًا بجيشه إلى المدينة.

وعندما عاب عليه المسلمون فى المدينة هذا الانسحاب ، وصاحوا فى الجيش العائد واتهموهم بالفرار، قال الرسول العظيم:

« بل هم الكرار إن شاء الله ».

فالرسول العظيم كان يرى ببصيرته أن هذه المعركة بين العرب والروم ليست هى الأولى والأخيرة ، ولكن المعركة مستمرة ، وأنهم سوف ينتصرون على أعداء الإسلام.

وتبلغ عظمة النبى وعبقريته القمة يوم رأى أن هزيمة «مؤتة» سوف تشجع الغساسنة والمناذرة أيضًا على التحرش بالمسلمين ، وأن الروم سوف يستغلون هذا الانسحاب في التهديد المستمر للمسلمين ، فقرر أن يقود بنفسه جيشًا إسلاميا ضخمًا قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، ويتجه فى أصعب الظروف حيث كان الوقت صيفًا ، وهو نفس وقت موسم جنى محصول البلح.

خرج قاصدًا تبوك، وفوجئ الروم بالجيش الإسلامى بقيادة النبى نفسه فى أصعب الظروف وأشقها ، فانسحب جيوش الروم، بينما أمر النبى خالد بن الوليد بإخضاع شمال الحجاز عندما ذهب إلى دومة الجندل ، واستطاع أن يأسر حاكمها «أكيدر بن عبدالله الكندى»، وقد أسلم أكيدر ، وعاد النبى إلى المدينة بعد أن قضى عشرين يومًا عند تبوك ، وكانت هذه الغزوة فى السنة التالية لغزوة مؤته ، أى فى السنة التاسعة للهجرة.

وقد أعادت هذه الحملة للمسلمين ثقتهم بأنفسهم ، وأن بإستطاعتهم مواجهة الدول الكبرى بلا خوف. وهذا ما حدث بالفعل عندما اكتسحت جيوش المسلمين الفرس والروم فى عهد خلفاء النبى ﷺ.

وكان خالد بن الوليد على رأس أحد أجنحة جيش المسلمين عندما دخل النبى مكة التى أخرجته ، وشاهد موكب النور وهو يدخل مكة ليحطم الأصنام وليعيد إلى بيت الله الحرام قدسيته. وينادى الرسول الكريم فى أهلها:

ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟!

قال أهل مكة : أخ كريم وابن أخ كريم.

قال النبى ﷺ : فاذهبوا فأنتم الطلقاء.

وتدخل مكة الإسلام ، وينتشر نوره فى أنحاء الجزيرة العربية كلها، وينتقل الرسول الكريم إلى أكرم جوار ، وتطل الفتنة برأسها تحاول أن يعود الظلام وأدران الجاهلية من جديد.

- فهناك من ارتد عن الإسلام.
- وهناك من منع الزكاة.
- وهناك من ادعى النبوة فى اليمامة.
- وهناك الخطر الرومانى والفارسى على الحدود.

وهنا تظهر قدرة الصديق على مجابهة هذه المواقف الصعبة ، فيقرر أن يحارب فى كل هذه الجبهات ، ويقود بنفسه الهجوم على المرتدين، فى نفس الوقت الذى يقرر فيه أن يوفد جيش أسامة بن زيد الذى كان قد أعده النبى ﷺ، لمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤته.

وكان خالد بن الوليد أحد الفرسان العظام فى حروب الردة، فقد أعاد إلى الإسلام هيبته وجلاله عندما قتل مسيلمة الكذاب مدعى النبوة فى اليمامة ، بعد قتال فى غاية الضراوة.

وتمضى الأيام ، أيامًا مجيدة من أروع أيام الإسلام.

خليفة رسول الله فى المدينة أصبح حديث الدنيا كلها ، وقد

عادت للإسلام قوته ومهابته فى النفوس، بقضائه على الردة ، وتسييره الجيوش لتجابه أقوى الإمبراطوريات ، وهو لا يكتفى بمجابهة الروم انتقامًا لشهداء مؤتة ، ولكنه يجابه الفرس فى العراق.

إنه ميلاد تاريخ جديد للعالم والحياة ، يوم خرجت هذه الجيوش الظافرة من أرض الجزيرة العربية لتكتب للحياة ميلاد تاريخ جديد ، وأيام جديدة وحضارة جديدة ، ويهدى للبشرية كلها عقيدة التوحيد.

ها هو عمرو بن العاص ، وأبو عبيدة الجراح ، ويزيد بن أبى سفيان ، ومعاوية بن أبى سفيان ، يتخذون طريقهم إلى الشام ، حيث الإمبراطورية الرومانية بعتادها وقوتها الرهيبة، وما كاد المسلمون يحققون الانتصارات على الروم ، حتى كانت الروم قد أعدت جيشًا جرارًا للقضاء نهائيا على العرب ، وإعادتهم إلى الجزيرة القاحلة التى جاءوا منها ، ووصلت الأنباء خليفة الرسول فى المدينة ، فأمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يذهب إلى الشام ، ويوليه القيادة العامة لمجابهة أعداء الإسلام ، ومن يحاولون القضاء عليه نهائيا. وتظهر عبقرية سيف الله ، ويقطع بسرعة صحراء الشام ، ليصل إلى أرض المعركة قبل اندلاعها بقليل ،

ويـتـبشر المسلمون خيرًا وهم يرون أن قيادتهم أصبحت فى يد خالد.

هذا السيف الذى لم يعرف الهزيمة يومًا ، والذى يفكر ويدير المعركة، بعقلية فذة عجيبة ، ويخطب خالد فى الناس أن يثبتوا فى معركة الشرف والكرامة ، فالمسلم ليس أمامه إلا إحدى الحسنيين ، وينظم خالد جيشه ، وفى نفس الوقت يعطى نساء المسلمين وظيفة مهمة كان لها أثرها فى هذه المعركة الفاصلة فى التاريخ (معركة اليرموك).

وعندما طلب من النساء أن يقتلن أى مسلم يفر من المعركة ، فهو يعرف تمامًا أن الهرب من المعركة يؤدى إلى سريان روح الهزيمة فى المقاتلين ، وكان من المقاتلين فى هذه المعركة رجل جاوز الثالثة والسبعين من العمر وزوجته ، وهذا الرجل الذى تقدمت به السن وزوجته العجوز هو أبو سفيان بن حرب وزوجته هند بنت عتبة.

أبو سفيان الذى طالما كاد للإسلام ونبى الإسلام ، وهند التى بلغ بها حقدها على عم الرسول حمزة بن عبدالمطلب أن أكلت كبده بعد أن دبرت مؤامرة اغتياله على يد «وحشى».

وها هما الآن يذهبان إلى تلك المعركة الفاصلة ، ومعهما

ولداهما يزيد ومعاوية. كمْ غيَّر الإسلام من قلوب كانت أشد قسوة من الحجارة!

وتبدأ المعركة حامية الوطيس.. الرياح عاصفة ، والغبار يملأ عيون الأعداء؛ لأنهم كانوا فى اتجاه الريح ، ويصول خالد ويجول، وجيش الإسلام قد عزم على الشهادة ، لا يريد غيرها بديلاً . إنهم لا يريدون إلا النصر أو الموت.

وتميل الكفة لصالح المسلمين ، ويتساقط الرومان بالمئات ، ثم الألوف ، ويشعر هرقل أن شمس الإمبراطورية الرومانية قد أخذت طريقها نحو الغروب لا محالة.

إنه فى لحظة يتذكر أمجاد الرومان وأيامهم فى سوريا ، وقال كلمته الشهيرة التى يودع فيها مجدًا زال ، وتاريخًا تهاوى:

« سلامًا عليك يا سوريا ، سلامًا لا لقاء بعده».

وركب صهوة جواده ليعبر جبال طوروس متجهًا إلى الغرب.

ويقول الرواة إنه فى بداية المعركة ، هجم الروم بعنف؛ مما حدا بعكرمة بن أبى جهل أن صاح فى المسلمين، مطالبًا أن ينضم إليه مَنْ يريد الموت ، فتقدم الحارث ابن هشام وضرار بن الأزور فى أربعمائة من فرسان المسلمين، وشنوا هجومًا عنيفًا على الروم ،

بينما تقدم خالد بن الوليد نحو فرسان العدو بجسارته المعهودة ، فتشتت شملهم وأوقع فى قلوبهم الرعب والفزع.

وبدا واضحًا للعيان أن المعركة قد أصبحت لصالح المسلمين رغم الضحايا. فقد استشهد قرابة ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، ومن بينهم عكرمة ، وضرار بن الأزور وغيرهما.

وبانتصارات اليرموك ذهبت قوة الرومان ، وأصبح الطريق ميسورًا أمام الجيوش العربية للزحف لتحقيق النصر ، فتوالى الزحف نحو المدن الرئيسية التى سقطت فى قبضة المسلمين ، وكان قد تولى القيادة أبو عبيدة بن الجراح بدلاً من خالد ، فقد ولاه عمر بن الخطاب القيادة العامة ، بعد أن تولى الخلافة التى آلت إليه عقب انتقال الصديق إلى جوار ربه.

استطاع أبو عبيدة الاستيلاء على «فحل» و «بيسان» و «طبرية، بينما سقطت معظم مدن الأردن تحت ضربات شرحبيل ، وتساقطت المدن الشامية مستسلمة إما صلحًا وإما عنوة ، بينما واصل عمرو بن العاص انتصاراته الكاسحة فى باقى مدن فلسطين، حتى وصل إيلياء (القدس) وحاصرها أربعة أشهر إلى أن استسلمت بشرط أن يتسلمها عمر بن الخطاب نفسه.

وقد قبل عمر بن الخطاب ذلك ، وعقد الصلح مع أهلها ،

وكان ذلك فى عام ١٦ هجرية .

وهكذا كانت جسارة خالد وقدرته الفائقة على القيادة والقتال واستثمار الثغرات التى يقع فيها الأعداء وتعديل خططه أثناء القتال من العوامل الحاسمة فى الفتوحات الإسلامية الكبرى ، فكان له الفضل فى تدمير قوة الفرس فى العراق والرومان والشام.

ثم واصل الزحف الإسلامى اندفاعه بعد ذلك إلى أن وصل ما بين الصين حتى المحيط الأطلنطى ، وجنوب أوربا أيضًا.

وإذا كان عمر بن الخطاب بما عرف عنه من عدالة بلغت أعلى مناسيب العدل كان يرى فى سيف خالد بن الوليد رهقاً ، فقد عزله عن القيادة أو خشى من فتنة المسلمين به وبانتصاراته ، مع أن النصر من عند الله، ربما لهذه الأسباب عزله من القيادة وهو فى أوج انتصاراته، وفى ذروة مجده.

إلا أن أمير المؤمنين ما كان ليجهل دور خالد ، وما قدمه من جلائل الأعمال والبطولات. لقد لقى خالد بن الوليد ربه أثناء خلافته، وعندما سمع النساء يولولن عليه قال:

«عجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

يومها بكى أمير المؤمنين طويلاً ، وهو يرى فارس الإسلام

وسيف الإسلام واراه التراب . . هذا الفارس الشجاع والقائد الملهم الذى أعاد للإسلام هيبته فى النفس فى حروب الردة، وأذاق الفرس عار الهزيمة .

وحطم أسطورة التفوق الرومانى الذى لا يقهر.

وهو الذى ذهب إلى «العزى» التى كانت تعبد من دون الله فهدمها وحرقها وهو يردد:

يا عزى، كفرانك لا سبحانك.

إنى رأيت الله قد أهانك.

وإن عمر يطوف بذهنه تاريخ هذا البطل العجيب ويبكى؛ لأنه كان يعرف قدره ، وفى الوقت نفسه كان موقعه كأمير للمؤمنين يجعله يعيد حساباته عندما تولى الخلافة ، فقد كان يرى أن انتصارات المسلمين إنما هى بفضل الله ، ولا يرجع فيها الفضل لقائد أو فارس، وأراد أن يثبت للناس ذلك؛ حتى لا يفتن الناس بفارسهم الذى لم يعرف الهزيمة.

ويقول الرواة أيضًا إن عمر كان قد نوى أن يولى خالد إحدى الإمارات ، ولكن الموت عاجله.

والعجيب أن بطل المعارك وقائد الحروب الجسور خالد بن

الوليد التى كانت نفسه تتوق إلى الشهادة فى أحد ميادين القتال ، مات على فراشه وهو القائل:

« ما ليلة يهدى إلىَّ فيها عرس ، أو أُبشَّرُ فيها بوليد ، بأحب إلىَّ من ليلة شديدة الجليد ، فى سرية من المهاجرين أصبح بهم المشركين».

ومن هنا قال وهو يشعر أن روحه سوف تنطلق إلى بارئها:

« لقد شهدت مائة معركة أو زهاءها. وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم ، ثم هأنذا أموت على الفراش حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء».

ومات البطل الشهيد ، وكل ما يملكه من حطام الدنيا فرسه وسلاحه. لقد حمل المسلمون جثمان بطل الإسلام ، وقائد انتصاراته إلى مثواه الأخير وأمه تودعه قائلة:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

أشجاع ، فأنت أشجع من ليث غضنفر يذود عن أشبال

أجواد ، فأنت أجود من سيل غامر يسيل بين الجبال

وما كانت هذه الكلمات الحزينة الباكية ، والمعبرة عن كل ما

فى البطل من صفات تتداعى إلى سمع عمر بن الخطاب حتى قال:

«صدقت والله إنه كان لكذلك».

ورقد الجثمان الطاهر فى مثواه الأخير ، بعد رحلة جهاد عظيمة تاركًا التاريخ يقص عبر أيامه سيرة بطل غيَّر مسار الدنيا ، ورسم صورة جديدة ، وخريطة جديدة لعالم جديد وحياة جديدة وحضارة جديدة.

obeikandl.com